(تابع) وقفات مع توجيهات نافعة من آداب ودروس سورة الحجرات الجامعة

2022-11-25

الحمد لله دبَّر بحكمته شؤون العباد، وأوضحَ بفضله سبيلَ الرشاد، وامتنَّ على المؤمنين بالهدى والرشاد، وأقام حجته على أهل الإستكبار والعناد، نحمده على نعمه وآلائه، ونشكره على فضله وإحسانه، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ، وجعله شفاء لما في الصدور والأسقام، فانتفع به المؤمنون، وحاد عن سبيله المستكبرون. ((وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآَنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)). وأَشْهَدُ أَنَّ سيّدنا مُحمَّداً عَبْدُ اللهِ ورَسولُهُ، وصَفِيُّهُ مِنْ خَلْقِهِ وحَبِيبُهُ، الطاهر العفيف. كلامه تعليم وتنوير وتثقيف. وشريعته يُسْر وتخفيف. أوْصى بكل ما فيه الهناء والصفاء والتشريف. وحذّر من كل ما يؤدّي إلى العَناء والشقاء والتخويف.

يا أُمّةً لنبيءٍ نورُه سطعَا * هذا الذي بالهدى والدين قد صدعَا

وعزّ مقداره في المجد وارتفعا * صلّوا على المصطفى يا كلَّ مَن سمِعَا

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيِّدِنا محمد. مَن كمُلت بذِكره الشهادة. وعلى آله ذوي المجد والسيادة. وصحابته أهل النُّسُك والعبادة. صلاة تمنحنا بها لطائف العلوم والإفادة. وتتوّجنا بها بتاج العزّ واليُمن والسعادة. وتحفظنا بها من الموانع القاطعة عن الوصول إليك في البدء والإعادة. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. تحدّثنا في الجمعة الماضية عن تفسير بعض آيات سورة الحجرات. والتي خاطب الله فيها المؤمنين وأمرهم بالتأدّب مع الله عز وجل. ومع رسوله صلّى الله عليه وسلَم. ومع أنفسهم ومع الناس أجمعين، ثم حذّر الله عباده المؤمنين من الإنسياق وراء الفاسق أو تصديق خبره،

وبعد ذلك أمر الله المؤمنين بإصلاح ذات البَيْن. وردّ المخطئ إلى الحق. لأنّ المؤمنين إخوة. ومن مقتضيات الأخوّة الترابط والتلاحم، ومن مقتضياتها أيضاً. ما ذَكره الله تعالى في منتصف سورة الحجرات وما بعدها وهو حديث اليوم بقوله سبحانه:((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)). أيها المسلمون. إنّ المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدى القرآن. هو مجتمعٌ له أدبٌ رفيع. ولكل فرد فيه كرامته التي لا تُمسّ. والتي هي من كرامة الأمّة الإسلامية. ولمْزُ أيّ فردٍ هو لمزٌ للكل، لأنّ الأمّة واحدة. كما قال تعالى في سورة الأنبياء:((إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)). فالكرامة واحدة والعزة واحدة. والله عز وجل ينهى عن السخرية. لأنّها خدْشٌ للنفس البشرية. واستنقاص لها. كما قال:((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ)). وفي قوله تعالى:((عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ)). إشارةٌ وتوجيه بأنّ القِيَم الظاهرة ليست هي القيَم الحقيقية التي يقاس بها الرجال. فهناك قِيَمٌ أخرى قد تخفى على الكثيرين. فالناس يقيسون بمقاييس الأرض من مال وجاه ومنصب وجمال. ولكنَ الله عز وجل يزن بموازين سماوية ربانية. كما قال سبحانه:((إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)). ولا يكتفي القرآن بالنهي عن السخرية فحسب. بل يحرّك العاطفة الإيمانية. ويذكِّر المؤمنين بأنهم أمّة واحدة. بقوله:((وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)). أيها المسلمون. ومن السخرية بالمؤمنين التنابز بالألقاب التي يكرهها أصحابها. فمِن حق المسلم على أخيه المسلم أن يناديه بأحب الأسماء إليه، ولقد غيَر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَم أسماءً وألقاباً كانت في الجاهلية. أحسّ فيها بأوصاف ذميمة تضايق أصحابها، والآية الكريمة تحذّر المؤمنين من الوقوع في الأخطاء بعد أن منَّ الله عليهم بالهداية والرشاد. فقال:((بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ)). هذا سياج يقيمه الإسلام لحماية المجتمع الإسلامي. وهو عدم

السخرية أو اللمز أو التنابز بالألقاب. أيها المسلمون. وثمّة سياج آخَر ومن نفس السورة أيضاً. إنه سياجٌ حول حرمات الأشخاص. وكرامتهم وحرياتهم. يقول تعالى:((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)). إنّ الهدف من ذلك كله أن يتطهّر المجتمع من الأمراض والعلل. وأن تتطهّر النفوس من الشحناء والبغضاء. فتبقى نقية طاهرة. لا تحمل في قلبها غلاًّ على مسلم. فتكون بذلك من أهل الجنّة. فالظنّ المجرَّد من الدليل يُفسد العلاقات. ويوغل النفوس. فالظنّ أكذب الحديث. كما جاء ذلك في صحيح الحديث. فالحكم على الناس يكون في الظاهر. والله سبحانه وحده هو الذي يتولّى السرائر. وأمَا التجسّس فهو الحركة التالية للظنّ. والقرآن الكريم يقاوم هذا العمل الدنيء. الذي هو تتبعٌ لعورات الآخَرين. وكشفٌ لأسرارهم. لأنّ للناس خصوصيات لا يرغبون أن يطلّع عليها أحد. ولهم أسرار ومكنونات يحتفظون بها لأنفسهم. فالتجسّس على الناس بأيّ شكلٍ كان. وبأيّ وسيلة كانت. انتهاكٌ لحرية الإنسان. وفضحٌ لأسراره. وإفسادٌ لحياته. روى أبو داود في سننه عن معاوية رضى الله عنه قال:((سمعتُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَم يقول: إنك إن اتّبعتَ عوراتِ الناس أفسدتهم. أو كدت أن تفسدهم)). فلا يحلّ لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخِر أن يتجسّس على الناس. سواء كان جاراً له. أو زميلاً في العمل. أو غيرهما من سائر الناس. بل الواجب أن يبتعد المسلم عن كل مواطن الريب. ولو انكشف شيء من بيت الجار أو غيره من خفايا الناس فالواجب الستر. ففي الحديث ((ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)). وفي حديث آخَر ((من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا مؤدةً من قبرها)). أيها المسلمون. وبعد التوجيه بعدم الظنّ بالمسلمين. أو التجسّس عليهم. يأتي النهي عن الغيبة في تعبير عجيب. وتمثيلٍ رائع. يجعل المسلم يأنف عن هذا المسلك المشين. يقول سبحانه: ((وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ

لَحْمَ أَخِيهِ مَيِّتًا فَكَرِهْتُمُوهُ)). والغيبة هي ذكرك أخاك بما يكره. وهي كبيرة من كبائر الذنوب. ومن مفسدات العلاقات. ومن عوامل هدم الثقة بين الناس. ومن أسباب الشحناء والبغضاء بين المسلمين، والويلُ كل الويل لمن يجعل أخطاء المسلمين وعيوبهم فاكهةً له في المجالس. ففي الحديث الصحيح في وصف المفلس يوم القيامة إثبات أنّ المغتاب تذهب حسناته إلى من اغتابه بقدر مظلمته. وفي الحديث الذي رواه أبو داود عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول صلَّى الله عليه وسلَم:((لمّا عُرج بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم. قلتُ: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم)). فالواجب على المسلم أن يحاسب نفسه. وأن ينتبه إلى هذا المنزلق الخطير. المُذْهب للحسنات، وأن يتحاشى ذِكر أسماء الأشخاص أو الإشارة لهم. وأن يذبّ عن عِرض أخيه المسلم. وأن ينصح مَن يقع في أعراض المسلمين. وأن يُشغل المجالس بكل كلام مفيد ونافع. وإذا لم يستطع فعليه بقول الله عز وجل كما في سورة الأنعام:((فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)). والسامع للغيبة دون إنكار منه داخلٌ في حُكم المغتاب. لأنّ الساكت عن الشر شيطان أخرس. وبعد أن نهى الله عن الظنّ والتجسّس والغيبة. عقّب على ذلك بالتزام التقوى. فهي السياج المانع للوقوع في مثل هذه المنكرات. ثم ذكر سبحانه وتعالى أمْر التوبة تطلّعاً لرحمة الله. فقال:((وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)). أيها المسلمون. وبعد أن ذكّر الله عباده المؤمنين بالآداب النفسية والإجتماعية. ذكَرهمْ سبحانه بالأصل الواحد. والميزان الواحد. فقال:((يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)). فأصل البشرية واحد. وهو التراب. والناس سواسية في هذا الأصل. ولا شيء يدعوا إلى السخرية أو اللمز. أو التنابز بالألقاب. أو الظن أو التجسس أو الغيبة. ثم إنّ اللون أو الجنس. أو اللغة أو الموطن. أو غيرهما من القِيَم الأرضية. ليس لها في حساب الله ميزان، إنما هنالك

ميزان واحد تتحدّد به القِيَم. ويُعرف به فضل الله. إنه قول الله:((إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)). وفي ختام السورة الكريمة تأتي المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته. في الردّ على أناس أسلموا حديثاً. ولم تصل قلوبهم بعدُ إلى مرتبة الإيمان. فقال تعالى:((قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)). ومع هذا فإنّ كرم الله جزيل. اقتضى أن يجزيهم على كل عمل صالح يصدر منهم لا ينقصهم منه شيئاً. كما قال تعالى:((وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا)). أيْ لا ينقصكم من أعمالكم شيئا. ثم بيّن الله حقيقة الإيمان بقوله جلا وعلا:((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)). فالإيمان تصديق القلب بالله ورسوله، وإذا كان الكافرون والمنافقون كرهوا ما أنزل الله. فإنّ المؤمنين لم يرتابوا. ولم يطعنوا في أيّ تشريع من دين ربهم. بل إيمانهم راسخ بأنّ دين الله حق. وأنّ الخير كله فيه. والإيمان الصادق الراسخ إذا وقر في القلب صدّقته الأعمال. فالمؤمنون حقاً هم ((الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)). إنها التضحية لهذا الدين بالغالي والنفيس، إنه تصديق الإيمان. والعمل للإسلام. وبذلك يكون النصر. وتكون العزة والكرامة. والله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى. وهو أعلم بما في القلوب. ((قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)). فاتقوا الله عباد الله. وتأدّبوا بهذه الآداب التي أدّبنا بها ربنا تبارك وتعالى. ونادانا بوصف الإيمان؛ فقال:((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا))؛ فعلينا أن نسمع وأن نطيع، وأن يسعى المسلم في أن يحفظ لسانه عن الكلام المحرَّم؛ فإنّ اللسان من أسباب دخول النار. بل هو من أعظم أسباب دخول النار، ولو تأمّلتَ معظم المعاصي وجدتَ أن معظم أسبابها اللسان؛ فليحرص المسلم على أن يحفظ لسانه، ((مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخِر فليقل خيرا أو ليصمت)). جعلنا ممّن قال الله فيهم:((إِنَّمَا

كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)). نَسَأَلُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُوَفِّقَنَا لِلتَّدَبُّرِ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ، وَلِتَمَثُّلِ آدَابِهِ الرَّفِيعَةِ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ. اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَارْزُقْنَا الصِّدْقَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، اللَّهُمَّ أَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَأَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَاهْدِنَا سُبُلَ السَّلاَمِ، وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَأْخُذُ مَا صَفَا وَيَدَعُ مَا كَدَرَ، وَيَعْرِفُ قَدْرَ الْعَافِيَةِ وَيَشْكُرُ عَلَيْهَا، وَيَرْضَى بِكَ كَفِيلاً لِتَكُونَ لَهُ وَكِيلاً، قَوِّمْنَا اللَّهُمَّ إِذَا اعْوَجَجْنَا، وَأَعِنَّا إِذَا اسْتَقَمْنَا، وَكُنْ لَنَا حَيْثُمَا كُنَّا، اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ وَالْمُسْلِمِينَ وَانْصُرْ عِبَادَكَ الْمُوَحِّدِينَ وَاحْقِنْ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ وَفِّقْ وُلاَةَ أُمُورِنَا لِمَا فِيهِ خَيْرُ الْبِلاَدِ وَالْعِبَادِ، وَاجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً مُطْمَئِنًّا سَخَاءً رَخَاءً وَسَائِرَ بِلاَدِ الْمُسْلِمِينَ، اللهم اجعلنا صالحين مصلحين غير فاسدين ولا مفسدين. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ